أولاً: فقه التداين

التداين

بسم الله الرحمن الرحيم. إن من أكثر المعاملات جرياناً بين الناس التعامل بالديون. فقد يحتاج الشخص إلى سلعة وليس لديه ثمنها حالاً فيلجأ إلى شرائها بالأجل، ويترتب على ذلك عملية تداين أو مداينة. وقد يحتاج الشخص إلى بعض المال فيحصل عليه من أخ له فتنشأ عملية تداين أو مداينة. إلى غير ذلك من الأحوال الكثيرة التي تعقب حقاً لأحد الأفراد على فرد آخر، ونكون أمام عملية تداين، ودائن ومدين.

وفي البداية نقرر أن هذا الموضوع على جانب كبير من الأهمية، وفقهه وتعلمه واجب على كل من يتعرض لموقف يكون فيه دائناً أو يكون فيه مديناً، وما أحسب أن أحداً من الناس لا يكون في يوم من الأيام دائناً أو مديناً، ومن ثم فإن فقه التداين والمداينة ينبغي أن يتعلمه الجميع، حتى يكونوا على بينة مما ينبغي القيام به عندما يكون الفرد طرفا في عملية مداينة. وقد أوجب الفقهاء على كل من يمتهن مهنة أو يحترف حرفة أن يتعلم أحكامها، ويقف على الواجب عليه والواجب له فيها. وقياساً على ذلك فإن الفرد المعرض في أية لحظة لأن يكون دائناً أو مديناً عليه أن يقف على الأحكام والتوجيهات التي جاءت بها الشريعة لضبط هذه العملية، وجعلها محققة للأهداف المبتغاة منها، تحقيقاً لمصالح المجتمع، وإبعاداً للنزاع والخصام عن أطراف العملية. ولا ينتظر حتى يقف أمام عملية التداين ليتعلم، بل عليه أن يتعلم ذلك منذ البداية، حتى إذا مارس التعامل بالدين كان عالماً بالأحكام. فما هو الدين؟ وما هي

المداينة، تلك التي يحتاج المسلم إلى الوقوف على أحكامها، حتى يحفظ حقوقه ويؤدي الذي عليه؟

أما الدين: فهو كل معاملة كان أحد العوضين فيها عيناً والآخر في الذمة نسيئة، إذ العين ما كان حاضراً في لغة العرب، والدين ما كان غائباً في لغتهم، أورد القرطبي رحمه الله تعالى شاهداً على هذا التعريف في لغة العرب قول الشاعر:

وعدتنا بدرهمينا طلاءً وشواءً معجلاً غير دين

فالدين ما كان مؤجلاً من طرفي المعاملة ليستوفى بعد مدة، أما المعجل والمقبوض منهما فليس بدين، وإنما هو العين، والتعامل يكون عيناً بعين أو عيناً بدين، ولا يكون في شريعة الإسلام ديناً بدين. فقد نهى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه عن بيع الدين بالدين.

أما المداينة: فهي مفاعلة من الدين، فأحد الطرفين يرضاه وهو الدائن، والطرف الثاني يلتزم به وهو المدين، فتتم المفاعلة، وهى اشتراك شخصين معاً في تبادل الفعل، مثل المبايعة والمناصحة، والمشاركة والمساومة، وكل ما جاء على وزن «مفاعلة» من الألفاظ. فالمداينة لابد فيها من طرفين دائن ومدين، من له الحق ومن عليه الحق، وكل طرف يجب عليه أن يتعلم فقه المداينة، حتى يتمكن من الالتزام بهدى الإسلام في هذا الخصوص.

وكما نعلم فإنه يجب على من يريد أن يمارس التجارة أن يتعلم فقه التجارة أولا، ومن يريد أن يمارس الصناعة، فعليه أن يتعلم فقهها، ومن يريد أن يمارس الزراعة فعليه أن يتعلم فقه الزراعة، ومن يريد أن يمارس الطب أو الهندسة أو غير ذلك من المهن فعليه أن يتعلم فقه هذه المهنة. كل ذلك قبل أن يبدأ امتهان المهنة الخاصة، فهل من يريد

أن يدخل في عملية مداينة عليه أن يتعلم فقهها مثل المهن المذكورة، أم أن الأمر هنا مختلف؟

الحقيقة أن الأمر في هذه القضية يختلف عن امتهان المهن المختلفة، والتي على الإنسان أن يتعلم فقهها عندما ينوى أن يمتهنها ويتخذها حرفة، فهذه مهن لا يدخلها الإنسان فجأة، بل يعد لها نفسه، ويوفر لنفسه مقومات امتهانها، ومنها تعلم الأحكام التي يحتاج إليها في ممارسة هذه المهنة. لكن قضية التداين تختلف عن ذلك، فهي أولاً ليست مهنة يمتهنها الإنسان، أو حرفة يحترفها، فيتعلم أحكامها عندما يقرر الدخول فيها. إنها وضع يجد الإنسان فيه نفسه، دون سابق تخطيط في غالب الأحوال، وبإرادة ونية في القليل من الأحوال، والغالب كما قلنا أن يفاجأ الشخص بأنه أصبح دائناً أو أصبح مديناً، دون أن يرتب لذلك، ودون أن يكون في نيته أو رغبته أن يكون طرفاً في هذه العملية. ومن ثم فلا يصح الانتظار حتى يقع ذلك كي يتعلم فقه المداينة، لأنه لا وقت لذلك عندما يفاجأ الشخص بأنه أصبح دائناً أو أصبح مديناً. وعليه فإن فقه التداين ينبغي أن يعلَّم للناس وأن يفقهوا فيه ابتداء، حتى إذا اضطروا إلى أن يصبحوا دائنين أو اضطروا إلى أن يصبحوا مدينين تكون لديهم المعرفة بما يجب عليهم أن يفعلوه، وكيف يحتاطون لأنفسهم، وكيف يلتزمون بتعليمات شريعتهم في هذا الخصوص.

إن فقه التعامل والتداين يجب أن يقدم للأطفال في التعليم الأساسي، ويجب أن يعلم للأولاد داخل الأسر، ويجب أن تقدمه أجهزة التوعية والتثقيف في المجتمع، حتى يكون الكافة على علم به، وفاقهين له، فهو جزء من الشريعة التي نعبد الله تعالى على ضوئها ونهدى منها. فلا ينبغي لأحد أن يجهل هذا الجزء من التشريع، إذ حاجته

إليه ماسة، ومتوقعة في أي وقت، فيجب عليه أن يكون مستعداً للتعامل مع هذه القضية على هدي من الإسلام وتشريعاته. وتشريعات الإسلام هنا على جانب كبير من البساطة، وعلى قدر كبير من السهولة واليسر، حتى ليتمكن الشخص العادي من التعرف عليها والإلمام بها دون صعوبة أو مشقة. وهي تستمد بساطتها ويسرها من بساطة ويسر الشريعة الإسلامية، والتي تنطلق من قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ ومن قوله سبحانه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ولأهمية هذه القضية في حياة المسلم، فإننا سنحاول بسط هدي الإسلام فيها في عدد من الحلقات القادمة بمشيئة الله تعالى.